

الدور الهيرمنيوطيقي في ترجمة النص المقدس

الجمعي شبياكي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجزائر -

djemai111@yahoo.fr

النص المقدس عالم من الحقائق المستترة وراء الألفاظ والتراكيب، نشأ بادئ الأمر خطابا إلهيا^(*) ثم انتقل من الصوت إلى الكتابة لتعذره، وبقصد تحويله إلى مادة، الغرض منها التثبيت والحفظ وجعل الخطاب في منأى عن الدمار والتلف، بحيث يمكن نقله إلى الغائب وتكراره واسترجاعه في كل مكان وزمان. غير أن الخطاب في انتقاله إلى الكتابة يفقد مستويات في الفهم؛ يقول محمد عبده: "إن السامع يفهم 80 في المائة من مراد المتكلم، والقارئ لكلامه يفهم منه 20 في المائة على ما أراد الكاتب".⁽¹⁾

فغياب المخاطب يفقد النص مستويين في الفهم:

1- مستوى الفعل اللاتعبيري: فللخطاب مستوى لاتعبيري يتعلق بالمخاطب ولا يندرج في الكتابة، لكن له أثر مساعد على فهم المخاطب، وهو ما يُشار إليه بالقوة الإيمائية التي تتشخص في سمات أو إشارات أو نبذة لا تلفظ، ولكن تُقدم خطابا أكثر إقناعا.

2- مستوى الفعل التعبيري المولّد: ما نفعله بكوننا نتكلم^(**)، ويقصد به ما يولده التعبير في السامع من انفعالات (خوف أو رجاء أو رحمة أو غضب... الخ).

وبغياب الواقع يفقد مستويين آخرين:

1- مستوى الظرف الزماني.

2- مستوى الظرف المكاني.

وقد عبر عنهما جمال الدين الأفغاني بالمناسبات حيث إن: "للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها، ولا تكاد تعلم إلا للقائل، ومن ثم كان التحقيق أن الألفاظ لا تفيد اليقين بمدلولاتها، لكثرة تطرق الاحتمال، فلا سبيل إلا إلى الاستدلال، وتأويل ما يبدي بظاهرة نقصا إلى ما يفيد الكمال".⁽²⁾

صحيح إن القارئ للنص المقدس يتشارك مع مصدر النص في تلك الرموز والعلامات المشكلة للغة التواصل، إلا أنه لا يتقاسم معه ذاته المتعالية (بكل ما تحمله الذات المتعالية من تجرد وإطلاقية) ويتعذر عليه ملامسة الواقع المنتج للنص. وبالتالي فالقارئ يحتاج لفك شفرة النص إلى خبرة وتأمل "يقول فالديس Valdis في الهرمنيوطيقا الفينومولوجية دراسة الأدب: فإن النص يتكون من: الشكل، والتاريخ، وخبرة القراءة، والتأمل الذاتي للمؤول".⁽³⁾

ولما كان المترجم يؤدي عملية هرمسية (***) بمستوياتها الثلاثة (التلاوة، الفهم والترجمة)، كانت الترجمة عملية هرمنيوطيقية بامتياز، ويكشف لنا تفاعل هذه المستويات مع عناصر الترجمة الثلاثة (النص، المترجم، الواقع) أدوارا هرمنيوطيقية وعمليات ديليكتيكية متعددة.

أولاً- مرحلة التلاوة:

إن انتقال الخطاب إلى نص مكتوب أفقد الكلمات صفة الحياة وجعلها مادة صامتة جامدة، واستلزم البحث عن ذاك المتواري والمسكوت عنه الذي أحيل على الصمت بسلطة الكتابة تحقيق السماع والإصغاء أولاً للنص، فكما

أن على السامع أن ينصت للمخاطب لا أن يتكلم فكذلك القارئ عليه أن لا يتكلم بل يصغي للنص، ألا يفسّر أو يترجم بل يفهم المعاني التي تجلت وأسفرت عن نفسها، وهذا لا يتحقق إلا بتلاوة النص أولاً، هذه العملية هي عملية إعادة إنتاج الخطاب، أو لنقل: هي عملية إعادة النسق المكتوب إلى نسقه الأصلي كصوت مسموع، ليساعد القارئ النصّ على استعادة ما فقدّه حين تحول إلى كلمات مكتوبة، ويمكّن النص من التحدث من جديد، "قراءة تسمح للنص أن يوجد مرة ثانية بوصفه حدثاً شفافاً ذا معنى يحدث في الزمان، وجوداً يمكّن لطبيعته وتكامله الحقيقي أن يتألق ويضيء".⁽⁴⁾

غير أن عملية إعادة الإنتاج هذه تتطلب من القارئ أن يعي أولاً معنى الكلمات التي يعبر عنها صوتاً، فالنص أمامه ما هو إلا رموزاً جامدة لا إشارة فيها ولا نبرة ولا نغمة، والسؤال هنا: هل يقرأ القارئ أولاً ليفهم؟ أم عليه أن يفهم أولاً ليقرأ؟ تمثل هذه العملية مفارقة ملغزة: فأنت لكي تقرأ لا بد لك من أن تفهم مقدماً ما سيقال، ولكن هذا الفهم ينبغي أن يأتي من القراءة، ها هنا تبدأ في البزوغ تلك العملية الديالكتيكية المعقدة التي تشتمل عليها عملية القراءة، حيث "من الضروري أن نفهم شيئاً ما لكي نعبر عنه، إلا أن الفهم نفسه يأتي من القراءة المؤولة من التعبير".⁽⁵⁾

هنا تظهر معنا إشكالية المطابقة، التي تقتضي أن يكون الشئان متماثلان ومن نفس النوع بحيث ينطبق أحدهما على الآخر.

سوف نلتمس حل هذه الإشكالية من الفلسفة الكانطية التي قدّمت لنا حلاً معقولاً لإشكالية المطابقة بين الحقيقة والواقع، وذلك بتطبيق فلسفة كانط في الكتاب التكويني على الكتاب التدويني، فنقول: إننا لا نفهم إلا بعد أن نسمع

أو نبصر، من حيث أن المعرفة تبتدئ بالحواس، أي بأشكال الحروف ورموزها، وترابطها وتعاقبها، لكن هذه الرموز والأشكال، تبقى مفككة غير منتظمة لا تزودنا بالفهم، ولهذا لا بد من تدخل العقل بما يتضمنه من مفاهيم سابقة حتى يعطي لتلك الرموز والإشارات التي أحيلت إليه من طرف الحواس طابعا منظما، من خلال استعمال مجموعة من المفاهيم مثل الأفراد والتكثير، والتذكير والتأنيث، والحقيقة والجاز... وغيرها من العلاقات الترابطية، لأن الفهم لا يوجد جاهزا في النص ليكتب على العقل ما يشاء، ولا هو سلسلة من الحالات العقلية المجردة في عقل القارئ، إنما الأحاسيس تزودنا بما يسميه (كانط) مادة المعرفة، فالفهم بناء يتم تشييده من المدركات الحسية (الرموز والإشارات النصية) بالعقل. (****)

ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني أن قراءة النص هي نفسها ظاهرة تأويلية؛ يقوم فيها العقل ببناء الأفكار من الألفاظ ومعانيها، وهذه هي أولى معاني الهرمنيوطيقا (أي الهرمنيوطيقا بمعنى التلاوة).

وتكشف لنا هاته العملية عن دور هيرمنيوطيقي أول بين النص والمترجم، حيث أن المترجم لا يُقبل على النص خاويا صفر اليدين بل محملا بمعارف وقبليات هي من مستلزمات القراءة، والنص بدوره يقوم بتوسعة تلك القبليات وتضخيمها.

في هذه المرحلة الهرمنيوطيقية يحضر واقع المترجم كطرف ثالث في عملية التفاعل في حين تختفي السياقات الزمانية والمكانية للنص التي ساهمت في إنتاجه وظهوره، ليرز دور القارئ أكثر ويختفي معنى النص وراء الرموز الحرفية والأشكال والتراكيب اللفظية.

ثانيا- مرحلة الفهم:

لا يتوقف الفهم عند تلاوة الحروف والكلمات، لأن الكلمات لا تبوح بكل شيء، ولأن المعنى يستتر ويتوارى خلف الألفاظ والتراكيب فيحتاج المترجم دائما إلى البحث عنه، وصورة هذا الخفاء في المعنى أننا لا نسمي الأشياء إلا عندما نضطر إلا تمييزها عن غيرها، ولهذا وضعت لكل الأشياء أسماء****، لكن هذه الأشياء لا تتحقق تسميتها إلا بعد أن يتحقق تصورها الذهني، ولذلك فإن التصور الذهني يسبق التسمية، ونلمس جدلية واضحة هنا في من وجد أولا: الفكر أم اللغة؟ فلا لغة من غير فكر، ولا فكر من غير لغة، وهي مسألة معقدة نسبيا ليست مجال بحثنا هنا، ولكن يمكن ملاحظة الفرق بين الاسم كلفظ مادي، والتصور الذهني له، كما يمكننا أن نؤكد أسبقية التصور الذهني للأشياء قبل تسميتها، فنحن عندما نعبر عن شيء ما نريده، إنما نحقق تصوره ذهنيا أولا ثم نختار الألفاظ المعبرة عن ذاك التصور، ولذلك كانت اللغة هي ألفاظ (كصوت أو كتابة)، وبما أننا نتعامل مع الخطاب المقدس كنص مكتوب، فنحن نقع في الجهة المقابلة للمخاطب، بمعنى أن التصور الذهني ليس سابقا للألفاظ بل تال لها، ولا يحصل التصور إلا بعد قراءة النص، وبالتالي فإن النص المقدس عندنا يتجزأ إلى صورتين:

1- صورة مادية تشكلها الألفاظ برموزها؛ وهذا ما اصطلح على تسميته بالبدال.

2- صورة ذهنية، أو ما يرتسم في الذهن عند قراءة الدال، وهذا ما اصطلح على تسميته بالمدلول.

فعملية فهم النص هي عملية عقلية بنائية تقوم على قراءة اللفظ كرمز، ثم استدعاء الشيء المسمى تصورا لا جسما.

ونتساءل هنا: ما مدى وضوح معنى النص؟ وهل المعنى يفرضه النص، أو القارئ، أو هما معا؟ للإجابة عن السؤال الأول نقول: يمكن استخلاص ثلاثة أنواع من الفهم:

- 1- فهم الأشياء البسيطة وقد يكفي لتحقيقها مرحلة التلاوة فقط.
 - 2- عمليات التجميع والتقسيم. ويتناول مبهم الدلالة على معناه (6)، الذي يحتاج لقرينة خارجة عنه ليفهم معناه؛ حيث أن الألفاظ تعرض عليها أحوال مختلفة في موضوعها كلفظة مفردة، أو عند تركيبها في جملة الكلام، فيتولد إبهام في فهمها، هذا الإبهام حاصل من جهات خمس:
أحدها: احتمال الاشتراك.
وثانيها: احتمال النقل بالعرف أو الشرع.
وثالثها: احتمال المجاز.
ورابعها: احتمال الإضمار.
 وخامسها: احتمال التخصيص. (7)
 - 3- عمليات الاستدلال من الأشياء المعلومة إلى الأشياء المجهولة، ويتناول طرق الكشف عن الدلالة، وهي أربعة:
أحدها: عبارة النص.
ثانيها: إشارة النص.
ثالثها: دلالة النص.
رابعها: اقتضاء النص.
- في هذين النوعين الأخيرين، سيحتاج المترجم لتحقيق الفهم إلى مراجعات بين النص والمصادر المعرفية الخارجية، من أجل دراستها والاقتباس منها،

لأن المترجم بعد القراءة سيكتشف عدم كفاية معارفه لحل مشكلات الإبهام في المعنى فيحاول في البداية تنظيم ما لديه من معارف وكشف علاقات جديدة بين عناصرها، فإذا فشل في حل المشكلات باستخدام ما لديه من معارف قبلية حتى بعد إعادة تنظيمها، سيحاول إحداث تغيير جذري في معارفه باستدخال أو اكتساب معارف جديدة تعتبر ضرورية لحل المشكلات المسببة للشعور بعدم الفهم أو عدم انسجام المعنى.

هذه العملية تفترض مراجعات كثيرة ومتعددة بين النص والمصادر الخارجية، وتمثل في حقيقتها دورا هرمنيوطيقيا ثانيا.

3 - مرحلة الترجمة:

يؤدي المترجم دور الإله هرمس حيث أنه يتوسط بين عالمين مختلفين، لكن عمله في هذه المرحلة أيضا لا يتوقف على النقل فقط، يل يمارس شكلا من أشكال التأويل وصورة من صور الإفهام، وبالتالي تتجدد مشكلة غرابة الظرف الزماني والمكاني للنص سواء كان المترجم يترجم من الداخل إلى الخارج أو من الخارج إلى الداخل، وإن كان في الأول أدق وفي الثاني أوسع.

بعبارة أخرى كيف لنا أن نأمل في ترجمة أحداث جرت في سياقات زمنية ومكانية مختلفة عن عصرنا الحديث؟ كيف لنا أن نفصل عن عصرنا الحاضر وما يعج به من أحداث سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية ووسائل تكنولوجيا وفضائيات وإنترنت... وغيرها لنندمج في عصر لا نعلم من أحداثه إلا السيوف والخيول والنبذ والإماء والجواري والعبيد...؟

هذه المرحلة هي لب عملية الترجمة، يحاول المترجم فيها تجميع معنى

النص والتعامل معه بالوسائل النحوية واللغوية والتاريخية وغيرها لتقدم نصا مطابقا للنص المقدس، تفترض عملية الترجمة فيها مراجعات متعددة ذهابا وإيابا بين النص والمترجم، وهو دور هرميوطيقي ثالث، يكون فيه الواقع المعرفي والزمكاني للمترجم حاسما ومهيمنًا على النص.

ونخلص من خلال اكتشاف تلك الأدوار الهرميوطيقية الثلاثة في عملية الترجمة أن ترجمة النص المقدس هي عملية تأويلية بامتياز، يؤدي المترجم فيها دور المفسر أو المؤول بالتمام. وأن النص المنتج فيها لا يمكنه اكتساب صفات التجرد والإطلاقية من النص بسبب تلك الأدوار الهرميوطيقية التي تكسبه صفات المصدر (الحدوث والنسبية)، فإذا أضفنا إليها عنصر الاختلاف بين واقع النص وواقع الفهم والترجمة، ازداد عندنا تأكيد الفرق بين النص المقدس وترجمة النص المقدس.

هوامش:

* يختلف الخطاب الإلهي عن الخطاب البشري بحيث أنه يأخذ من المخاطب صفة الإطلاقية والتجرد وعدم الحدوث (ليس كمثله شيء).. باعتبار المعرفة لا تتحقق إلا بثلاث: سمع وبصر وعقل.

1- تفسير المنار: ج 1/13.

** يمثالن إضافة إلى مستوى الفعل التعبيري أو الافتراضي (فعل القول): نظرية فعل الكلام عند الكاتبين أوستين وسيرل، بول ريكور: من النص إلى الفعل أبحاث التأويل، دار الأمان، المغرب. الرباط. ط. الأولى (1425هـ / 2004م) ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، ص 73.

- 2- جمال الدين الأفغاني، التعليقات على شرح العقائد العضدية، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، مصر . القاهرة . ط. الأولى (1423هـ / 2002م)، إعداد وتقديم: سيد هادي خسروشاهي، ص161.
- 3- عادل مصطفى، فهم الفهم - مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر-، ط. رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة . مصر . الطبعة الأولى (2007)، ص20.
- *** نسبة إلى الإله هرمس Hermes رسول الآلهة الأولمب، كان بحكم وظيفته يتقن لغة الآلهة ويفهم ما يجول بخاطر هذه الكائنات الخالدة، ثم يترجم مقاصدهم وينقلها إلى أهل الفناء من بني البشر. ينظر: عادل مصطفى، فهم الفهم، ص24.
- 4- عادل مصطفى، فهم الفهم، ص40.
- 5- المرجع نفسه: ص39.
- **** باعتبار المعرفة لا تتحقق إلا بثلاث: سمع وبصر وعقل.
- ***** يعتبر هذا الكلام دليلاً على انقسام اللغة إلى حقيقة ومجاز، يقول ابن الأثير: "المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها ليعرف كل منها باسمه من أجل التفاهم بين الناس، وهذا يقع ضرورة لا بد منها؛ فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له، فإذا نقل إلى غيره صار مجازاً": ابن الأثير أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، دون: ط. (1995م)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد (ج1/75).
- 6- خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير، الناشر: دار النفائس، لبنان . بيروت .، ط. الثامنة (1406هـ / 1986م)، ص325.

7- فخر الدين الرازي، المخصول في علم الأصول، الناشر: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية . الرياض . ط. الأولى (1400هـ) ت: طه جابر فياض العلواني، ج487/1.